تمهيـــــد

فـــي عام ١٨٢٢ ألقى جان جاك أمبير، أحد أبوي الأدب المقارن، محاضرة في جامعة السوربون عن" الأدب الفرنسي في علاقاته مع الآداب الأجنبية، ختمها قائلا: ســنقوم أيها السادة بهذه المقارنة، فبدونها تكون دراسة التاريخ الأدبي ناقصة، وإذا وجدنـــا عـــبر هذه المقارنة أدبا أجنبيا تفوق علينا في جانب ما فسوف نعترف بذلك التفوق ونعلنه، نحن أغنياء بالمجد فلن نغاز من الآخرين، معتزون بأنفسنا فلن نكون ظالمين"(١).

ذلـــك أن التأثير والتأثر، والأخذ والعطاء، بين الآداب العالمية المختلفة، حقيقة علمـــية لاخـــلاف علـــيها، ومع تشابك العالم، وتلاشي المسافات وشيوع الدعوة إلى العولمـــة، ســـوف تتســـع العالمية الأدبية، وتساوى بين الآداب، وتتجاوز الخلافات وتواصـــل الحضـــارة ســـيرها دون توقف، وتكتسح الصراعات المحلية، وتتلاشى الـــنماذج، وتنمى الخصائص، ويتشابه الرجال في كل مكان، والرحالة الذين يجوبون العـــالم ســـوف يجدونـــه أقل تنوعا وتفاوتا في العادات، من تلك التي اكتشفها كبار العلمـــاء فـــي القـــرون الماضية، والأصالة الوحيدة الباقية واليافعة سوف نجدها في ذكريات الأدب البدائي، ومع ذلك يمكن القول:

"إن ظاهرة تأثر الآداب فيما بينها ظاهرة قديمة، تستوي في ذلك الآداب القديمة والحديـــثة، الشـــرقية والغربـــية، فالأدب الروماني تأثر كثيرا بالأدب الإغريقي في أعقـــاب غـــزو الـــرومان لأثيـــنا عام ١٤٦ قبل الميلاد، ومع أن روما هزمت أثينا عســـكريا فـــي هـــذه الفترة، فإن أثينا قد انتصرت عليها ثقافيا، وأصبحت" المحاكاة

(١) أ.د الطاهر أحمد مكي، الأدب المقارن، أصول وتطوره ومناهجه، ص٧١، الطبعة الرابعة، مكتبة الآداب القاهرة، ٢٠٠١م

الرومانية للإغريق طابعا مميزا، بل إن هذه المحاكاة انتقلت بدورها من خلال الأدب الرومانـــي – اللاتيني إلى الآداب الأوربية الكلاسيكية التي حرصت بدورها على أن تـــبدأ عصـــر الإحياء بمحاكاة النماذج القديمة عند اللاتينيين والإغريق، واعتبار أن الجمال المطلق في التعبير والتفكير لا يوجد إلا عند هؤلاء القدماء"[1].

والأدب العربي ليس بمعزل عن هذا القانون الذي خضعت له بقية آداب العالم، والـــذي يـــربط التطور والتقدم بانفتاح الثقافة القومية والتقائها مع الثقافات المجاورة والوافـــدة، فكانـــت الـــترجمة من الآداب الأخرى في القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي، فاتحة عصر النهضة الإسلامية.

كان كتاب كليلة ودمنة، وترجمة ابن المقفع إلى العربية من اللغة الفارسية أول مؤتَمـــر أجنبي محدد في مجال النثر، والكتاب نفسه، فيما يقول مترجمه: مما صنعة علمـــاء الهـــند مـــن الأمـــثال والأحاديث. وقد بذل المترجم جهدا كبيرا في تحوير الخصـــائص الهـــندية الصحيحة، لجعله ملائما للذوق الإسلامي، دون أن يصبه في قالـــب إســـلامي بحـــت، وأضـــيفت إليه فصول جديدة بعضها اقتضته طبيعة الحياة العربـــية، وبعضها كان موجودا في الترجمة الفارسية دون الأصل الهندي، وأصاب الـــتعديل مقدمة الكتاب نفسها، أي أن النثر الفني العربي جاء إلى الحياة تحت تأثير أدبين أجنبيين: الهندي والفارس[2].

وكـــان هناك اتصال حضاري، وتبادل ثقافي بين المسلمين والأوربيين، وكانت الحضـــارة الإســـلامية وراء النهضـــة الأوربية التي بدأت في القرن الثاني عشر،

(١) أ.د أحمد درويش، الأدب المقارن؛ النظرية والتطبيق ص١٠، مكتبة الزهراء، القاهرة ١٩٨٤.

(٢) د. الطاهر أحمد مكي، في الأدب المقارن: دراسات نظرية وتطبيقية، ص١٣،ط٥، القاهرة ٢٠٠٣م.

وتواصلت نموا، حتى بلغت ذروتها في القرن السادس عشر الميلادي، وسلك التأثير الإسلامي طريقه إلى أوربا عبر رافدين عظيمين الأول:

الحروب الصليبية:

وكـــان مسرحها الشرق، واستمرت قرابة قرنين من الزمان، من القرن الحادي عشر حتى الثالث عشر، ودارت على أرض الشام. **والرافد الثاني: أسبانيا وصقلية،** وقد اختلف الباحثون الأوربيون فيما بينهم، أي الرافدين أعظم تأثيرا.

فالعالم الألماني "بروتس" يرى أن الحروب الصليبية كانت العامل الوحيد وراء نمـــو أوربا خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر، ومنها انبثقت كل العوامل التي أدت إلى تكوين أوربا الجديدة، أوربا عصر النهضة والاكتشافات وعصر الإصلاح، ثم يشير أيضا إلي أن أسبانيا وصقلية العربيتين كانتا مركزين هامين في نقل التراث العربـــي إلـــى أوربا، ولكنه سرعان ما ينس رأيه هذا، ويجعل من فلسطين المصدر الوحيد. ولكن "إرنست بيكر" محرر مادة الحروب الصليبية في كتاب "تراث الإسلام" الـــذي أصـــدرته جامعة أكسفورد الإنجليزية يري: أن هذا الزعم باطل لأن حركة المولديـــن والمســـتعربين في أسبانيا وصقلية كانت أكثر نفاذاً و أوسع محيطا وأبعد عمقـــا، ولـــو أنه جاء متأخرا بعد أن حدث الاتصال بسبب الحروب الصليبية، فعلاً، علـــى نحو أو بآخر" ويرى: أن اللاتينيين في سورية لم يستطيعوا أبدا أن ينفذوا إلى وهـــج الـــثقافة الإسلامية على نحو ما فعل المسيحيون في غربي البحر الأبيض أيام تألف حضارة قرطبة وكل أسبانيا. وبالرغم من الحروب في البر والبحر، كان يحدث تـــبادل تجارى مكثف، على عكس ذلك الشلل الذي اعتقد بيرين أنه كان سائدا، كما كان يحدث تبادل آخر أقل وضوحا في التأثيرات الثقافية[1].

(١) شاخت وبوزورث، تراث الإسلام، القسم الأول، ترجمة محمد زهير السمهورى ص١١٦، ١٩٧٨م.

وبعـيدا عـن هـذا الصـراع وهو قومي سياسي في أبعاده يضع في حسبانه الاعتراف بدور إسبانيا إسلامية أو مسيحية، في نهضة أوربا أو إنكاره، يمكن القول إن الحـروب الصليبية لعبت دورا حاسما في الجانب الديني، فهبطت بهيبة البابوات الدينـية، وهـزت نفـوذ طبقة الرهبان، وغذت الشك لدى المثقفين، ودفعت بطبقات كبيرة إلى التمرد على سلطان الكنيسة، ولم تجرؤ على فعل هذا من قبل.

وفـي الجانب الاقتصادي والاجتماعي جاءت معها بمساواة أكبر بين الطبقات، علـى نحـو لـم تعـرفه أوربا من قبل، وأوجدت طبقة من الفلاحين الأحرار ومن الحرفييـن، وازدهـرت الصـناعة، ونمت التجارة وانتشرت النباتات والحاصلات العربـية، وشـاع اسـتعمال العقاقير المشرقية والتوابل، وعرف الغربيون استخدام السـكر في الحلوى، وكانوا قبل ذلك يستخدمون العسل، وأدخل الصليبيون العائدون إلـى بلادهم عادة فرش البسط والسجاجيد على الأرض، واستخدام الفراش، واقتناء المجوهرات وأدوات الزينة والمساحيق وأشياء أخرى كثيرة.

وفـي مجـال السياسة أدت إلى قيام دول ذات سلطة مركزية، وإدارة منظمة، وقضاء مستقل، وكان ذلك جديداً علي أوربا في العصور الوسطى لا عهد لها به من قبل"[1].

أمـا الدور الذي اضطلعت به إسبانيا الإسلامية فقد تولى جلاءه، وكشف الستار عـنه في لغة قوية صريحة القس الإسباني، الأب اليسوعى **خوان أندريس** (١٧٤٠-١٨١٧م)، من إحدى قرى محافظة بلنسية، وكانت هذه المقاطعة أيام الحكم الإسلامي تـربة مهـيأة لازدهـار الـثقافة العربية، فقد نأى بها موقعها الجغرافي غداة الفتح

(١) أ.د طاهر أحمد مكى، في الأدب المقارن ص١٦٠ د. سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ط٦، جـ٢، ص ١٠٠٧ مكتبة الأنجلو، القاهرة ١٩٩٤

الإســـلامي عن الثورات والفتن والقلاقل السياسية، وجذب إليها اعتدال جوها ووفرة خـــيرها أسرا عربية نبيلة، وأصبحت فيما يقول المؤرخ الأندلسي ابن سعيد "متمكنة الحضـــارة، جلـــيلة القـــدرة" وتـــرك ذلك كله أثرا واضحا في حياة الناس؛ عاداتهم وأخلاقهـــم وآدابهـــم، وكان ثلث سكان المنطقة على الأقل حتى مطلع القرن السابع عشـــر يتحدث العربية ويدين بالإسلام سرا أو علانية، ويقاومون قهرهم على اعتناق الكاثوليكـــية، وإرغـــامهم على اتخاذ الأسبانية لغة في إصرار وعناد وصلابة غير عادية، إلى أن صدر قرار طردهم نهائيا من وطنهم عام ١٦١٣م. في هذا الجو نشأ وتـــربى خـــوان أندريس، ولا نعرف شيئا عن طفولته، ولا شيئا كثيرا عن شبيبته، ولكنـــنا نلتقـــي بـــه راهبا ينتمي إلى طائفة اليسوعيين وفى ضوء نتاجه، ومع غيبة المصادر المعينة نستطيع أن نرد روافد ثقافته إلى نبعين أصليين:

<u>أو لهمـــا</u> عربي يتمثل في الحكايات والأساطير ومظاهر الحياة العملية واليومية التي استقرت في مسقط رأسه عن العرب، ولم يكن قد مضى على طردهم من وطنه عـــند مولـــده أكثر من قرن ونصف من الزمان، ولهذا المناخ العربي قدمت لنا هذه المقاطعة عددا لا بأس به من كبار المستشرقين الأسبان.

<u>والـــرافد الثاني اليسوعية،</u> وكانت فرقة كاثوليكية ذات منهج خاص فى التربية والتعلـــيم أسســـها الراهـــب الإسباني "إجناثيودى لوبولا" عام ١٥٣٤م، وكان يرى ومعـــاونوه أن خير وسيلة لمقاومة الإصلاح الديني الذي تدعو إليه الفرق المناهضة للكاثوليكية المحافظة أن يجتمع لأتباع هذه فضيلتا: التدين والعلم.

ومن ثم جعلوا همهم أن يعلموا ناشئتهم أغزر العلم وأشده جهدا، وأكثره تجويدا، وأعـــدوا لذلك منهجا يشتمل على كل ما في الأدب من روائع، ويجب أن نحب خير

الأشياء إذا وقعت أبصارنا عليها، وكانوا يتخذون من الآداب الرائعة شباكا يتصيدون بها النفوس.

ولـــم يكد اليسوعيين قد اصطدموا مع الملك كارلوس الثالث (١٧١٦/١٧٨٨م) فأصـــدر قرار بطردهم من إسبانيا، فلجأ خوان أندريس إلى إيطاليا، وفيها ألف عددا مـــن الكتب الهامة، يهمنا من بينها رسالة عن موسيقا العرب" و"أصول الأدب بعامة وتطوراتـــه وحالـــته الراهـــنة" وألفه باللغة الإيطالية، وجاء في سبعة أجزاء، شغل الحديث عن الفكر العربي مساحة منه تبلغ الجزأين تقريبا، وصدر بين عامي ١٧٨٢ و١٧٩٨.

وكـــان"خوان أندريس" أول من التفت في أوربا إلى قضية التأثير والتأثر، وأول مـــن وضع يده على تأثير الأدب العربي في الآداب الأوربية، ودرس ذلك على نحو منهجـــي بقدر ما تسمح به ظروف عصره، وسنورد رأيه هذا تفصيلا، وفى تفصيله ما يغنينا عن آراء الآخرين.

يقـــول فـــي مقدمـــة كـــتابه: لم يدرس أحد الأدب العربي حتى الآن بما يتفق وأهميـــته. "لقـــد قدم هوتينجر Hottinger وإربلوه "Herbelot" وبوك"pocok" وآخـــرون معلومات وافرة يمكن أن تساعد على نحو ما في إنارة طريقنا إليه، ولكن أحـــد لـــم يُعرفـــنا به على نحو دقيق، لقد دفعت بي المادة، وهى جديدة، إلى البحث المتحمس، وآمل أن أخرج منها بنتائج سارة...

ويشـــير إلـــى المخطوطـــات العربية التي توجد في الإسكوريال قرب مدريد، بمناســـبة صدور فهرس لها: "إن هذه المخطوطات جعلتني أقضي على الدور الكبير الذي لعبه الأدب العربي في نهضة أوربا الحديثة، ولتوضيح هذه النقطة الهامة، وما

أكـــثر القضـــايا التي تفرعت عنها، وكان يجب على أن أفسرها، وما أكثر الأبحاث الجديدة التي كان يجب على أن أقتحم لجها وإن معرفة الأدب الإسباني، وهو مجهول لكثيريـــن كـــالأدب العربـــي، ودراســـة كتاب العصور الأولى، وهم اليوم في عالم النســـيان، وتحديـــد أصول الثقافة الحديثة ولغاتها، وشعرها، ودراسة شعراء إسبانيا وشـــعراء بروفانس القدامى وأبحاث أخري كثيرة، ليست بأقل عذابا وأشد ضرورة، كـــل ذلك أضاء لي الطريق لاكتشاف الحقيقة ولقد تبدو غريبة لكثيرين، ولكنها الحق خالصـــا: إن الفكـــر الحديـــث يعترف بينوته للعربية، لا في العلم فحسب، وإنما في الأدب أيضا.

ولكي أوضح على نحو أفضل تأثير العرب في ثقافة أوربا أردت أن آتى بجديد فـــي قضية تتصارع أمم كثيرة حولها عبثا، كل يدعى هذا الشرف لنفسه، على حين نحن جميعاً ندين به لأولئك العرب: الورق والأرقام والبارود والبوصلة، كلها جاءتنا عـــن العـــرب، وربمـــا الســـاعة الذبذابة أيضا، والجاذبية، وبعض الاكتشافات ذات الضـــجيج كانت معروفة في ذلك الوقت عند تلك الأمة، وكثير غيرها، قبل أن تصل أخبارها آذان فلاسفتنا. وكذلك المدارس والمراصد والمجامع العلمية،ومؤسسات أدبية أخرى، لا نفكر في أن ندين بوجودها. للعرب"

لقد اتكأت على هذا العالم الأسباني لصراحته في تقرير تأثير العرب في أوربا، واســـتغنيت به عن آخرين كثيرين، بوجزون أو يترددون أو يشككون واكتفيت بذكر إجمالا ته التي فصّلها في جزء كامل من كتابة الذي أشرت إليه [1].

---

(١) أشارت د. سهير القلماوى ود. محمود على مكى، إلى خوان أندريس بايجاز فى كتابتها "أثر العرب والإسلام في النهضة الأوربية" ص١٤٦ الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة ١٩٦٧.
ولكن أستاذى د. الطاهر أحمد مكى درسه تفصيلا في كتابه في الأدب المقارن، دراسات نظرية وتطبيقية ص ٢١١- ٢٢٤، مكتبة الآداب، ط ٥، القاهرة ٢٠٠٢.